حامد الجبوري يتحدث عن وطنية البكر واعجابه بصدام

■ خلال مراسم تشييع القائد الفلسطيني وديع حداد، في بغداد في 1978, استرجع رجلان ذكرياتهما مع الراحل على مقاعد الجامعة الأميركية في بيروت. كان اسم الأول جورج حبش الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والثاني حامد علوان الجبوري وزير الدولة العراقي للشؤون الخارجية. وينقل الجبوري عن حبش قوله يومها انه رأى حداد، الطالب الخجول الوديع سابقاً، يصفع كارلوس ولا يجرؤ الرجل الذي يهز العالم على الاعتراض.

وخلال بحثي عن سيرة حداد التي نشرت في الوسط على حلقات عشية 11 أيلول (سبتمبر) 2001, استوقفني اسم الجبوري الذي شارك في تأسيس حركة القوميين العرب الى جانب حبش وحداد وهاني الهندي وأحمد الخطيب وآخرين. وقبل الحرب التي أطاحت نظام صدام حسين رحت أبحث عن اسماء عراقيين يمكن أن تساعد شهاداتهم القارئ في التعرف على ما دار داخل كواليس نظام البعث العراقي منذ استيلائه على السلطة في 17 تموز 1968. فاستوقفني اسم حامد الجبوري مرة أخرى.

لم يكن الجبوري الذي جاء الى البعث من حركة القوميين العرب جزءاً من النواة الصلبة في الماكينة الأمنية ـ الحزبية التي أدارت البلاد بقسوة غير مسبوقة. ولم يكن شريكاً في صناعة القرار الذي كان في غالب الأحيان في قبضة رجل واحد. لكنه كان حاضراً في المواقع الحساسة. فغداة طرد رئيس الوزراء عبد الرزاق النايف في 30 تموز 1968 عين الجبوري وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية، ليقيم في القصر ويكون على علاقة يومية مع الرئيس أحمد حسن البكر بعد مرور سنوات على تعارفهما في أحد سجون عبدالكريم قاسم. وبعد مرور بوزارتي الثقافية والإعلام والشباب وجد الجبوري نفسه وزير الدولة المكلف رئاسة ديوان صدام حسين، نائب رئيس مجلس قيادة الثورة آنذاك. ومن 1977 الى 1984 سيكون وزير الدولة للشؤون الخارجية، وشهد من ذلك الموقع اندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية. وبعد مرور بسفارة العراق لدى الاتحاد السويسري عين الجبوري في 1989 سفيراً لدى تونس ومنظمة التحرير ومندوباً دائماً لدى الجامعة العربية. وفي 1993 سيغادر منصبه رافضاً العودة الى العراق ومنتقلاً الى المعارضة.

سألت حامد الجبوري عن شعوره يوم سقط نظام صدام، فقال انه لم يبتهج لأنني كنت أريد سقوطه بأيد عراقية ومن دون وقوع العراق تحت الاحتلال. واستغرب أن يقدم صدام نفسه زعيماً للمقاومة متناسياً انه صانع الكارثة. لكن الجبوري لم ينكر أنه اعجب بصدام يوم لقائهما الأول في 1967 وأنه أحبه أيضاً. وروى أن البكر كان رجلاً وطنياً يمتاز بالدهاء والمكر لكنه غير مولع بالقتل والتصفيات الدموية التي اعتمدها صدام باكراً وحولها أسلوباً في الحكم.

انها شهادة من داخل النظام ومن داخل مكتبي الرجلين اللذين يفترض أنهما تقاسما السلطة. وسيكشف الجبوري ان الرجل الثاني بكر في الاستئثار بالأوراق وحول الأب القائد أسيراً في قصر الرئاسة. وها هي الحياة تنشر هذه الشهادة باستثناء حفنة عبارات وردت على لسان الرئيس المخلوع وتشكل مساً بكرامة قادة ومسؤولين. وكما سائر المساهمات في سلسلة يتذكر فإن الباب يبقى مفتوحاً لكل توضيح أو نقد أو تصحيح. وهنا نص الحلقة الأولى:

حاوره غسان شربل

الحلقة الأولى

■ في أيلول 1980 كنتم وزير دولة للشؤون الخارجية، هل عرفتم بالحرب مع إيران قبل وقوعها؟

■■ لا. طبعاً لم تكن أجواء التوتر خافية على أحد لكن لم يتم التحدث في مجلس الوزراء عن حرب مع إيران. استدعي رئيس هيئة الأركان عبدالجبار شنشل إلى مجلس الوزراء، وقال له صدّام: اشرح للاخوان الوزراء الوضع على الحدود بيننا وبين إيران. وكان شنشل يتحدث عن الوضع ولكن من دون أي تلميح إلى احتمال اندلاع حرب على رغم الاشكالات.

■ وعن الخميني؟

■■ كان صدّام يكرهه كرهاً شديداً. كان الخميني موجوداً في النجف ولديه مساعد هو الشيخ محمود دعائي الذي كان يتعاون مع الاستخبارات العراقية ويشرف على إذاعة بالفارسية موجهة من الأراضي العراقية ضد الشاه. وصار دعائي لاحقاً أول سفير للثورة الإسلامية لدى العراق. وسألني صدّام ذات يوم هل قرأت عن ولاية الفقيه؟ فأجبت بالنفي. فقال: إنه كتاب صغير يجب أن تقرأه. ثم انطلق في الحديث عن مساوئ الخميني وطمعه في السلطة. تخوّف صدّام من أن يكون لدى شيعة العراق هوى إيراني. ربما كان ذلك من أسباب الحرب العراقية – الإيرانية. السبب الرئيسي، في اعتقادي، هو طموحه في أن يكون سيد الخليج. شعر بأن هاجس الغرب، خصوصاً الولايات المتحدة، هو احتواء الثورة الخمينية التي رفعت شعار تصدير الثورة وأثارت قلق جيرانها. ولعله اعتبر أن تصديه لإيران الخميني سيضع الأساس ليصبح رجل أميركا في المنطقة. طبعاً لعب أحد الزعماء العرب دوراً في دفع صدّام في هذا الاتجاه ووعده بالحصول على دعم غربي.

■ حاولت الجزائر التوسط لإنهاء الحرب العراقية – الإيرانية وقتل وزير خارجيتها محمد بن يحيى في 4 أيار (مايو) 1982 خلال مهمة مكوكية بين بغداد وطهران، ماذا تذكر عن الدور الجزائري؟

■■ الجزائر صاحبة خبرة في ملف الخلاف العراقي – الإيراني. فهي كانت راعية الاتفاق الذي وقعه شاه إيران محمد رضا بهلوي ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة صدام حسين في 1975 والمعروف باتفاق الجزائر.

لا أريد الخوض في الأسباب التي دفعت صدّام إلى توقيع ذلك الاتفاق. نتائجه تكفي للايضاح فقد أدى توقيعه إلى انهيار الثورة الكوردية التي تخلى عنها الشاه في مقابل ما حصل عليه بموجب الاتفاق. واضح أن صدّام فضّل في تلك المرحلة تأمين الداخل، أي سلامة النظام. وكل شيء يشير إلى أنه وقّع على أمل بأن تساعده التطورات لاحقاً على نقض الاتفاق الذي لم يتردد في تمزيقه وإعلان إلغائه بعد اندلاع الحرب العراقية – الإيرانية.

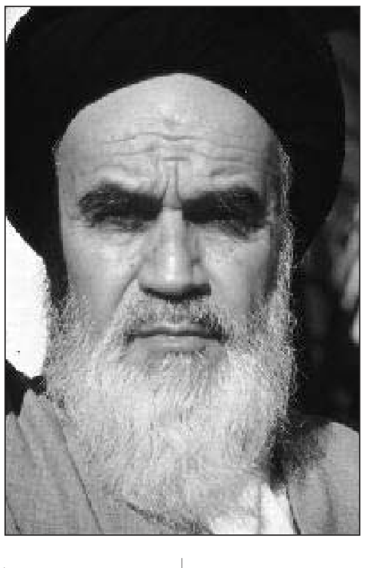

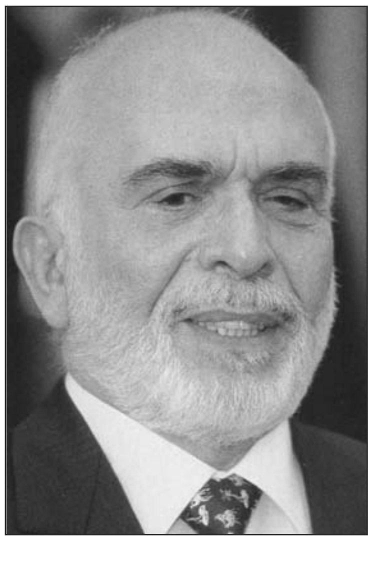

بن جديد يتهم صدّام

إذاً تعرف الجزائر مواضيع الخلاف وتعرف الحساسيات. وقبل أن تسعى إلى انهاء الحرب، سعت إلى منع اندلاعها. خلال الحرب ولدى تزايد الضغط الإيراني بعد انقضاء فترة تفوق الجيش العراقي، حملني الرئيس صدّام حسين رسالة إلى الرئيس الشاذلي بن جديد تتعلق بالحرب وتطوراتها والجهود لوقفها. استقبلني الرئيس الجزائري وكان برفقتي عبدالحسين الجمالي وكيل وزارة الخارجية العراقية.

وعلى رغم التحفظ الذي يطبع سلوك المسؤولين الجزائريين فوجئت بالرئيس بن جديد يقول لي الآتي: تشكلت لدينا قناعة بأن الرئيس صدّام يعيش في أجواء توحي بالمزيد من التصعيد ضد إيران. لا مصلحة لأحد في اندلاع نزاع من هذا النوع يستنزف طاقات البلدين ويهدد الاستقرار في المنطقة. شعرت بأن من واجبي كرئيس للجزائر أن أحاول منع التصعيد والانزلاق إلى الحرب. ذهبت إلى بغداد وعرضت الموقف مع صدّام وألححت عليه من أجل العمل على تجنب مواجهة كنت اعتبرها مشروع كارثة. للأسف الشديد لم يكترث صدّام لما قلته. تجاهل رأيي ولم يعطني أي موقف مطمئن. خرجت من اللقاء معه قلقاً فقد بدا أنه اعتمد تماماً خيار التصعيد. أقول آسفاً انه بدا كمن يسعى إلى الحرب. وحين عدت إلى الجزائر لم تتأخر الحرب في الاندلاع.

■ ومقتل وزير الخارجية الجزائري؟

■■ اندلعت الحرب وظهرت دعوات إلى وقفها وتحركت وساطات. طبعاً لم يكن سهلاً وقف تلك الحرب. المشكلة لم تكن في الحساسيات التاريخية والقديمة بين البلدين. كانت هناك مشكلة آنية شديدة التعقيد وهي الكره الشديد المتبادل بين الرجلين القويين اللذين يتواجهان في الحرب، وهما صدّام حسين من جهة وآية الله الخميني من جهة أخرى. صدّام اعتبر أنه يصدّ الخطر الإيراني عن العراق والمنطقة. والقيادة الإيرانية اعتبرت أنها في موقع الدفاع عن النفس وان الجانب العراقي هو الذي بادر إلى اشعال الحرب.

موسكو تؤكد

تحركت الجزائر عبر وزير خارجيتها، وكان مسعاها يلقى ترحيباً من جهات كثيرة ادركت خطورة استمرار هذا النزاع في منطقة حساسة. جاء وزير الخارجية الجزائري في المرة الأخيرة ومعه وفد من كبار الموظفين الجزائريين محاولاً بلورة قاسم مشترك يمكن على أساسه وقف الحرب. وقرر التوجه إلى إيران في إطار تحركه المكوكي. سلكت طائرة الوزير الجزائري طريق المثلث الحدودي العراقي – الإيراني – التركي، واختفت فجأة.

> **في إحدى الفترات بدا أن الدول الخليجية راغبة في وقف الحرب وظهرت مؤشرات إلى ميلها لتقليص مساهمتها المالية فيها**

بعد فترة طويلة جاءنا وزير النقل والمواصلات الجزائري مبعوثاً من الرئيس بن جديد. استقبله صدّام وكنت حاضراً. حمل الوزير الزائر معه ملفاً ضخماً جداً حوى نتائج التحقيقات التي أجرتها الجزائر حول اسقاط الطائرة. قدم الوزير ايجازاً شفهياً إلى الرئيس العراقي ومفاده أن بلاده أجرت تحقيقاً واسعاً وثبت لديها على نحو قاطع أن الصاروخ الذي اسقط طائرة وزير الخارجية الجزائري اطلق من طائرة عراقية. وأوضح أن أجزاء من الصاروخ سقطت في الأراضي الإيرانية وعثر عليها بما في ذلك الرقم الموجود على الصاروخ، وان الاتحاد السوفياتي أكد أن ذلك الصاروخ كان جزءاً من صفقة صواريخ اشترتها بغداد من موسكو. وقال الوزير الزائر إن الرئيس بن جديد أصدر تعليمات مشددة تقضي بأن يكون الاطلاع على ملف التحقيق محصوراً بمجلس الوزراء الجزائري وقيادة جبهة التحرير الوطني، وان التعليمات تشدد على عدم تسرب أي شيء إلى وسائل الإعلام، حرصاً على العلاقات بين البلدين. تسلّم صدّام الملف ولم يعلّق على كلام الوزير الجزائري ولم يقل كلمة واحدة عن نتائج التحقيق. وكان موقفه غريباً، إذ كان يمكن التخفيف أن يعد بتحقيق أو يشكك في النتائج.

التنازل عن الجزر!

■ لم يكن صدّام يريد وقف الحرب؟

■■ من خلال وجودي في وزارة الخارجية وما سمعته، وصلت إلى قناعة أن صدّام كان مصراً على اسقاط النظام الإيراني، أو على الأقل خلخلته تماماً لتسهيل سقوطه. لهذا لم يكن معنياً فعلياً في المراحل الأولى بأي وساطة ترمي إلى وقف النزاع. أذكر أن الرئيس أحمد سيكوتوري رئيس غينيا ورئيس لجنة المساعي الحميدة لمنظمة المؤتمر الإسلامي حاول بدوره انهاء النزاع. في رحلته الأخيرة عقد اجتماعاً مع صدّام في مطار بغداد وكنت حاضراً. كان سيكوتوري، ككل وسيط، يسعى إلى انضاج المواقف لترسيخ القناعة لدى الطرفين بأن الخيار الوحيد هو خيار وقف الحرب. واستهل سيكوتوري اللقاء متفائلاً، وإذا بالرئيس العراقي يفاجئه بشرط جديد لوقف القتال وهو أن تعلن إيران تخليها عن الجزر الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى. بدا الاستغراب واضحاً على وجه سيكوتوري الذي خاطب صدّام قائلاً: هذا مطلب تعجيزي يا سيادة الرئيس. أرى انك لست راغباً في انهاء الحرب. الجزر الثلاث ليست عراقية ولا يطالب العراق بالسيادة عليها. لا استطيع أن أنقل إلى الإيرانيين طلباً من هذا النوع. الأولوية يجب أن تكون لوقف الحرب.

بعدها تخلّى سيكوتوري عن المهمة التي انتقلت إلى رئيس غامبيا.

■ هذا يعني أن صدّام تبنى مطالب دولة الإمارات العربية المتحدة، فهل كانت علاقته معها جيدة؟

■■ نعم. ذات يوم وكان صدّام لا يزال نائباً توقف في الإمارات في طريق عودته إلى بغداد من موسكو. لم أكن حاضراً يومها، ولكن نُقل إليّ أنه اتخذ موقفاً يعبر عن عمق العلاقات. قيل إنه أبلغ الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان أنه إذا تحرش الاتحاد السوفياتي بدولة الإمارات، فإن العراق سيضع جانباً معاهدة الصداقة والتعاون مع السوفيات، وسيقف بكل قوته إلى جانب الإمارات.

طبعاً في موضوع الحرب العراقية – الإيرانية لم تبخل دول الخليج على صدّام بالدعم. لكن صدّام كان يعتبر أنه بمحاربته إيران يدافع عن العراق ودول الخليج معاً. بعبارة أخرى كان يعتقد بأن العراق هو الدولة الوحيدة المؤهلة للوقوف في وجه إيران، وان دول الخليج ليست قادرة على ذلك بقواها الذاتية. من هنا نظر إلى الدعم الخليجي كأنه واجب على هذه الدول، إذ أنها تدفع المال فقط، فيما يدفع العراق المال والدم معاً. وربما هذا ما يفسّر موقفاً مؤسفاً شهدته بنفسي. قدمت دول الخليج مساعدات سخية إلى العراق بعد اندلاع الحرب مع إيران. لكن تلك الحرب بدت خطيرة على استقرار المنطقة وبدت باهظة التكاليف أيضاً. في إحدى الفترات بدا أن الدول الخليجية راغبة في وقف الحرب وظهرت مؤشرات إلى ميلها لتقليص مساهمتها المالية فيها. جاء وزير الخارجية الإماراتي راشد عبدالله النعيمي واستقبله صدّام وكنت حاضراً. فجأة أراد صدّام توجيه رسالة قاسية وخاطب النعيمي قائلاً: سلّم علي وقل له. لا أريد نقل العبارة بحرفيتها لأنها غير لائقة، وهي تتحدث عما كان يمكن أن تفعله إيران بالإمارات ودول أخرى لولا وجود صدّام.

تكهرب الجو وامتعض الوزير الزائر لكنه لم يجب. رافقته إلى المطار وكان شديد الانفعال. نظر إلى الأمر كأنه دليل على نكران الجميل أو العنجهية والابتزاز. طبعاً من الخطير أن يتصرف رئيس دولة بهذا الاسلوب.

عن الحياة